

رواد علم الاجتماع:

ابن خلدون:

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي) ولد في (غرة رمضان 732هـ / 27 مايو 1332) مؤسس علم الاجتماع ومؤرخ عربي مسلم من إفريقية في عهد الحفصيين وهي تونس حالياً .

ولد ابن خلدون في تونس عام 732هـ لأسرة عربية يصل نسبها إلى الصحابي وائل بن حجر وتوفي في رمضان عام 808هـ في مصر وتم دفنه بها . له العديد من الاسهامات ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع . وتمتع ابن خلدون بمكانة علمية عالية سواء على المستوى العربي أو العالمي فيقول عنه المؤرخ الإنجليزي توينبي «في المقدمة التي كتبها ابن خلدون في تاريخه العام، أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي عقل في أي زمان .»

ترك تراثا مازال تأثيره ممتدا حتى اليوم . ولد ابن خلدون في تونس عام 1332م (732هـ) بالدار الكائنة بنهج تربة الباي رقم 34 .

أسرة ابن خلدون أسرة علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، نزح أهله من الأندلس في أوساط القرن السابع الهجري أو توجهوا إلى تونس حاضرة العلوم آنذاك . وكان قدوم عائلته إلى تونس خلال حكم دولة الحفصيين . ينتهي نسبه بالصحابي وائل بن حجر الحضرمي .

حياته :

قضى أغلب مراحل حياته في تونس والمغرب الأقصى وكتب الجزء الأول من المقدمة بقلعة أولاد سلامة بالجزائر وعمل بالتدريس، في جامع الزيتونة بتونس وفي المغرب بجامع القرويين في فاس الذي أسسته الأختان الفهري القيروانيان وبعدها في الجامع الأزهر بالقاهرة، مصر والمدرسة الظاهرية وغيرهم

وفي آخر حياته تولى القضاء المالكي بمصر بوصفه فقيها متميزا خاصة أنه سليل المدرسة الزيتونية العريقة وكان في طفولته قد درس بمسجد القبة الموجود قرب منزله سالف الذكر المسمى «سيد القبة» توفي في القاهرة سنة 1406 م (808هـ). ومن بين أساتذته الفقيه الزيتوني الإمام ابن عرفة حيث درس بجامع الزيتونة المعمور ومنارة العلوم بالعالم الإسلامي آنذاك.

في أسرة أندلسية الأصل من مدينة اشبيلية، هاجرت إلى المغرب، ثم قدمت إلى تونس أثناء بداية حكم الحفصيين، وشغل أفرادها مناصب سياسية رفيعة داخل البلاط الحفصي. نشأ بتونس في محيط أرستقراطي، ومثل أقرانه باشر مبكرا حفظ القرآن الكريم، وكان ذلك بكتاب مسجد القبة الذي ما يزال قائما إلى الآن بنهج تربة الباي. إثر ذلك درس اللغة العربية والعلوم الشرعية على يد والده الذي كان متبحرا فيهما، ودرس أيضا بجامع الزيتونة، وهناك تشرب بعلوم عصره النقلية والعقلية.

كان ابن خلدون يرغب في التفرغ للعلم على منوال والده، لكن الطاعون الجارف الذي اجتاح تونس سنة 1348 غير مسار حياته، إذ بوفاة أبيه وعدد كبير من شيوخ جامع الزيتونة وهجرة عدد من المتبقين منهم على قيد الحياة إلى المغرب، قرر بعد ذلك ترك العلم والاتجاه نحو الوظائف المخزنية رغم أخطارها، للقيام بدوده على غرار أجداده.

أول وظيفة تولها ابن خلدون كانت وظيفة كاتب مراسلات الوزير محمد بن تافراكين سنة 1350.

ولما سقط ابن تافراكين سنة 1352 ترك ابن خلدون تونس ورحل إلى
بسكرة بالجزائر ومنها انتقل إلى قسنطينة.

في سنة 1354 رجع إلى مدينة تونس، وهناك تزوج ثم هاجر إلى فاس،
وبسرعة اندمج في بلاط السلطان المريني أبي عنان الذي أصبح يشغل
منصب كاتبه الخاص قرابة عامين ونصف إلى أن اتهمه السلطان بالتآمر
مع أمير بجاية فسجنه سنة 1357. ظل في سجنه قرابة سنتين، ثم عفا عنه
السلطان وأعادته إلى وظيفته الأولى، التي بقي يشغلها ما يناهز عن الأربع
سنوات.

وفي مدينة فاس التي كانت تمثل آنذاك عاصمة العلم بأقصى الغرب
الإسلامي زاد تفقهها في المسائل الشرعية بفعل مخالطته لشيوخ جامع
القرويين، وزادت معرفته بدواخل عالم السياسة بفعل موقعه داخل البلاط
الأميري. وفي هذه الفترة كتب مسودة مقدمة كتابه العبر سنة 1363 رحل
ابن خلدون إلى الأندلس والتحق بحاشية السلطان محمد بن يوسف بن
الأحمر أمير غرناطة، فكان مستشاره الأريب، ثم توترت العلاقة ما بينهما،
فغادر الأندلس إلى بجاية بالجزائر سنة 1365، وهناك تولى لفترة قصيرة
منصب الحجابة. إثر ذلك انتقل إلى بسكرة بجنوب الجزائر، وبقي بها خمس
سنين بعيدا عن عالم البلاطات السلطانية، عاكفا على مطالعة كتب الفقه
وكتب التاريخ الإسلامي.

وفي سنة 1370 هاجر إلى تلمسان ليشغل منصب حاجب الأمير أبي حمو
من بني عبد الوادي، لكن بفعل الحرب ما بين بني عبد الوادي والمرينيين
حكاهم فاس قرر الرجوع من جديد إلى بسكرة، وفي الطريق أسر من طرف
أعدائه المرينيين، ولينقذ نفسه قبل بأن يخلع بيعته لأبي حمو والاشتغال مع
أعدائه المرينيين. في مدينة فاس اكتوى أيضا بدسائس البلاط، وسجن، ولم
ينج من محبسه إلا بفعل تدخل صديقه أمير مراکش، لكنه بقي هناك
والتحق بسلك التدريس في جامع القرويين.

الجزء الأول من
ريوتونة بتونس
ي القيروانيتان
هم

مميزا خاصة
سجد القبلة
لقاهرة سنة
معرفة حيث
ذلك.

ثم قدمت
سيرة ربيعة
رانه باشر
ي ما يزال
م الشرعية
ة، وهناك

الطاعون
يه وعدد
على قيد
المخزنية

الوزير

في سنة 1374 غادر فاس إلى قلعة بني سلامة في الجزائر، وبها قضى
قرابة أربع سنوات انصرف خلالها إلى تحرير كتاب المقدمة الشهير، وشرح
في تصنيف كتابه العبر، ثم نقحه بعد ذلك وهذبه وألحق به تواريف
الأمم. في سنة 1378 رجع إلى مدينة تونس عاصمة الحفصيين. ولما استقر
بالحاضرة انهل عليه طلبة العلم، فأثار ذلك حفيظة بعض شيوخ جامع
الزيتونة، على رأسهم ابن عرفة.

كره ابن خلدون أجواء السعاية التي كانت تلاحقه منذ شبابه في
منطقة المغرب العربي فقرر الهجرة إلى مصر سنة 1382 أيام حكم الملك
الظاهر برقوق وبالقاهرة باشر التدريس بالأزهر. هناك ذاع صيته
كفقيه مالكي متبحر في علوم الدين، وفي سنة 1384 عين في منصب
قاضي قضاة المالكية.

وفي تلك السنة غرق المركب البحري الذي كان يقل زوجته وأبناءه
القادمين من تونس، فكان ذلك المصاب أخطر حدث أثر فيه. أقام ابن
خلدون في مصر قرابة أربعة وعشرين عاما لم يغادرها إلا سنة 1387 للحج،
وسنة 1399 لزيارة القدس، وسنة 1400 للشام برفقة السلطان الناصر فرج
الذي خرج للدفاع عنها ضد زحف المغول بقيادة تيمورلنك. بعد هزيمة
الناصر فرج وعودته إلى مصر أجبر ابن خلدون على البقاء في الشام جليسا
لتيمورلنك، الذي رغم فضاوته إلا أنه قدر ذكاء ابن خلدون وسعة علمه.
لما ضجر من جو المعارك ومن غربته داخل بلاط مغولي، استأذن ابن
خلدون تيمورلنك للعودة إلى مصر على أساس أنه ذاهب لجلب كتبه
التي لا يستغني عنها، لكنه في قرار نفسه كان مقررا عدم الرجوع، فأذن
له. وبعد عودته إلى مصر نقح كتبه وأتمها، ثم وافته المنية في رمضان عام
1406، وكان حينئذ قاضي قضاة المالكية فيها، ودفن في القاهرة بمقابر
الصوفية خارج باب النصر.

الجزائر، وبها قضى
دمية الشهير، وشرح
وألحق به تواريخ
بصيين. ولما استقر
بعض شيوخ جامع

فقه منذ شبابه في
أيام حكم الملك
هناك ذاع صيته
عين في منصب

لزوجته وأبناءه
ثرفيه. أقام ابن
سنة 1387 للحج،
لطان الناصر فرج
لنك. بعد هزيمة
باء في الشام جليسا
لدون وسعة علمه.

سولي، استأذن ابن
هب لجلب كتبه
دم الرجوع، فأذن
بته في رمضان عام
في القاهرة بمقابر

كان ابن خلدون دبلوماسياً حكيماً أيضاً. وقد أرسل في أكثر من
وظيفة دبلوماسية لحل النزاعات بين زعماء الدول: مثلاً، عينه السلطان
محمد بن الأحمر سفيراً له إلى أمير قشتالة للتوصل لعقد صلح بينهما..
وبعد ذلك بأعوام استعان به أهل دمشق لطلب الأمان من الحاكم
المغولي القاسي تيمورلنك، وتم اللقاء بينهما، وقد وصف ابن خلدون
لذلك اللقاء في مذكراته. إذ يصف ما رآه من طباع الطاغية، ووحشيته
في التعامل مع المدن التي يفتحها ويقدم تقيماً متميزاً لكل ما شاهده في
رسالة خطها لملك المغرب. الخصال الإسلامية لشخصية ابن خلدون،
أسلوبه الحكيم في التعامل مع تيمورلنك مثلاً، وذكاءه وكرمه، وغيرها
من الصفات التي أدت في نهاية المطاف لنجاته من هذه المحنة، تجعل
من التعريف عملاً متميزاً عن غيره من نصوص أدب المذكرات العربية
والعالمية. فنحن نرى هنا الملامح الإسلامية لعالم كبير واجه المحن
بصبر وشجاعة وذكاء ولباقة.

قال المؤرخ الأندلسي ابن حيان في هذه الأسرة: (بنو خلدون) إلى الآن في
إشبيلية نهاية النباهة ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية.

كان من أشهر عظماء العرب... وشهرته في الأوساط الثقافية في أوروبا
تكاد تفوق شهرته في الشرق، واسمه الكامل (عبد الرحمن بن خلدون).
كما أن فلاسفة الغرب أجمعوا على أن (مقدمة ابن خلدون) هي أعظم
عمل أدبي يمكن أن يخلقه أي عقل بشري في أي زمان. ويعتبر ابن خلدون
أحد العلماء الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية فهو مؤسس علم الاجتماع
وأول من وضعه على أسسه الحديثة وقد توصل إلى نظريات باهرة في هذا
العلم حول قوانين العمران ونظرية العصبية وبناء الدولة و أطوار عمارها
وسقوطها. وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصل إليه لاحقاً بعدة قرون
عدد من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي (أوجست كونت).

إسهاماته :

ترك ابن خلدون عدداً قليلاً من المؤلفات أشهرها كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر)، ومن من أكبر إنجازات ابن خلدون أنه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع وعلم العمران ووضع أسس علم التاريخ. وكثير من الكتاب الغربيين وصفوا تقديم ابن خلدون للتاريخ بأنه أول تقديم لاديني للتأريخ، وهو له تقدير كبير عندهم. وتعد ترجمة حياة ابن خلدون من أكثر ترجمات شخصيات التاريخ الإسلامي توثيقاً بسبب المؤلف الذي وضعه ابن خلدون ليؤرخ لحياته وتجاربه ودعا التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحدث ابن خلدون في هذا الكتاب عن الكثير من تفاصيل حياته المهنية في مجال السياسة والتأليف والرحلات، ولكنه لم يضمنها كثيراً تفاصيل حياته الشخصية والعائلية.

مؤلفاته:

قدم ابن خلدون عدداً من المؤلفات المهمة أهمها «المقدمة» الشهيرة والتي قام بإنجازها عندما كان عمره ثلاثة وأربعين عاماً، وكانت هذه المقدمة من أكثر الأعمال التي أنجزها شهرة، ومن مؤلفاته الأخرى «رحلة ابن خلدون في المغرب والمشرق» وقام في هذا الكتاب بالتعرض للمراحل التي مر بها في حياته، حيث روى في هذا الكتاب فصولاً من حياته بجميع ما فيها من سليات وإجائيات، ولم يضم الكتاب عن حياته الشخصية كثيراً ولكنه عرض بالتفصيل لحياته العلمية ورحلاته بين المشرق والمغرب فكان يقوم بتدوين مذكراته يوماً بيوم، فقدم في هذا الكتاب ترجمته ونسبه والتاريخ الخاص بأسلافه كما تضمنت هذه المذكرات المراسلات والقصائد التي نظمها، وتنتهي هذه المذكرات قبل وفاته بعام واحد مما يؤكد مدى حرصه على تدوين جميع التفاصيل الدقيقة الخاصة به لأخر وقت. ومن الكتب التي احتلت مكانة مهمة كتاب «العبر» و«ديوان المبتدأ والخبر» والذي جاء في سبعة مجلدات أهمها «المقدمة» حيث يقوم في

هذا الكتاب بمعالجة الظواهر الاجتماعية والتي يشير إليها في كتابه باسم «واقعات العمران البشري» ومن الآراء التي قدمها في مقدمته: «إن الاجتماع الإنساني ضروري فالإنسان مدني بالطبع، وهو محتاج في تحصيل قوته إلى صناعات كثيرة، وآلات متعددة ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدرات الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم - بالتعاون - قدر الكفاية من الحاجة الأكثر منهم بأضعاف.

اعتزل ابن خلدون الحياة بعد تجارب مليئة بالصراعات والحزن على وفاة أبويه وكثير من شيوخه إثر وباء الطاعون الذي انتشر في جميع أنحاء العالم سنة 749 هجرية (1348 م) وتفرغ لأربع سنوات في البحث والتنقيب في العلوم الإنسانية معتزلاً بالناس في سنينه الأخيرة، ليكتب (سفره الخالد) أو ما عرف (بمقدمة ابن خلدون) ومؤسساً لعلم الاجتماع بناء على الاستنتاج والتحليل في قصص التاريخ وحياة الإنسان. واستطاع بتلك التجربة القاسية أن يمتلك صرامة موضوعية في البحث والتفكير.

الفكر الاجتماعي لدى ابن خلدون :

يعتبر ابن خلدون العصبية الركيزة الأساسية لأي نشاط سياسي أو اجتماعي، وأن الدولة لكي تقوم تحتاج إلى رابطة تجمع الأفراد تحت لوائها وتدفعهم للتضحية من أجلها، والعصبية تقوم بهذا الدور استناداً على أن الإنسان كائن اجتماعي الطبع ويحتاج إلى كيان ينتمي إليه يوفر الحاجات التي لا يستطيع توفيرها منفرداً، إذن الفرد والقبيلة باعتبارها أكثر أشكال الروابط شيوعاً وقتئذ كلاهما بحاجة للآخر لتستقيم أمورهما معاً.

ويرى ابن خلدون في المقدمة أن الفلسفة من العلوم التي استحدثت مع انتشار العمران، وأنها كثيرة في المدن ويعرفها قائلًا: «بأن قومًا من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي، تُدرك أدواته وأحواله، بأسبابها وعللها، بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية وأن

تصحيح العقائد الإيمانية من قِبَل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل، وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة. فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوّموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانونًا يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق».

وفاته :

وتوفي في مصر عام 1406 م، ودفن في مقابر الصوفية عند باب النصر شمال القاهرة. وقبره غير معروف. والدار التي ولد بها كاتنة بنهج تربة الباي عدد 34 بتونس العاصمة بالمدينة العتيقة. وله قصيدة في الحنين لموطنه تونس.